تعاون الحيوان

أدِر الطرْف في فضاء هذه البسيطة واستشرف سكان هوائها واطلَّ على سكّان مائها من اكبر الحيوان والنبات الى اصغر انواع الميكروبات تجد الاحياء كلها في جهاد وزحام وحرب وصدام كبيرها يأكل صغيرها وقويُّها يلتهم ضعيفها. وهذه الحرب وهذا الجهاد اشدّ ما يُظن لاوّل وهلة وقتلاها تعدُّ بملايين الملايين ففي ثغر دمياط يخرج الحوت من البحر الى بحيرة المنزلة ليبيض فيها فتوضع الشباك في طريقه عموديّة ووراءها شباك افقيّة فاذا رأى الشباك العموديّة قائمة دونه وثب في الهواء الى ما وراءها فوقع على الشباك الافقيّة فيسكنه الصيادون ويستخرجون البيض من جوفه ويلقحونه وهو البطرخ المعروف وهم يصطادون في سنتهم الوفًا والوف الوف من هذه الاسماك وفي كل سمكة منها نحو مليون بيضة فانظر الى مقدار ما يتلفونه من سمك البحر لاجل معيشتهم ولولم يفعلوا وباض هذا السمك كلّه وافرخ لذهبت فراخه فريسة لغيره من الحيوان او امتلأ البحر بها امتلاء ولم يعد يسع غيرها. وآثار الحرب والزحام بادية في كل أنواع الحيوان والنبات والحكمة من ذلك غير خافية على من يتدبرها

وقلما يخلو امر من وجهين فما ذُكر من الحرب والزحام والائتلاف والالتهام هو الوجه الواحد. وهناك وجه آخر وهو وجه التعاون والتعاضد لدفع الضراء والوئام والسلام في اقتسام السرّاء. وفي رأي الاستاذ كلر رئيس مدرسة بطرس برج الجامعة ان هذا الوجه اقوى في ترقية الانواع من الوجه الاول فقد قال في خطبة تلاها منذ عشر سنوات على جمهور من العلماء في روسيا "انني لا انكر جهاد الحيوان ولاسيما نوع الانسان وفائدة ذلك في بقاء الانواع لان الاحياء كلها تحتاج الى امرين ضروريين التغذية والتوليد فالتغذية تدعوها الى الجهاد والتفاني ولكن التوليد يدعوها الى السلام والتعاضد. وعندي ان التعاضد افاد في نشوء الاحياء اكثر من الجهاد"

والعالمون بطبائع الحيوان الذين راقبوا الحيوانات في منازلها وكتبوا عن رؤية وروية رأوا دلائل التعاون والتناصر بين كل الانواع من اصغرها الى اكبرها فالجُعلة التي لا تجد زبلاً تضع فيه بيضها ليكون طعامًا لصغارها تفتش عن حيوان ميت كفارة او جرذ وتدعو بعض اخواتها وتتعاون على جرّه ودفنه في الارض وتبيض واحدة منها فيه والباقيات لا يزاحمنها على ذلك

وذكر البرنس كروبتكن انه رأى سرطانًا كبيرًا من سراطين ملقًا في حوض الاسماك في مدينة برمنجهام قد قلب على ظهره في زاوية الحوض ولم يستطع القيام اذ كان بجانبه قضيب من الحديد يمنعه من ذلك فاقبلت السراطين عليه تعاونه على القيام فاقامته ولكن قضيب الحديد منعه من الخروج من مكانه فقلب على ظهره ثانية فعادت السراطين الى معاونته وكلما تعب واحد منها غاص في الحوض ورجع ومعه اثنان آخران لينوبا منابه ولبث البرنس يراقبها ساعتين كاملتين وهي لاتألو جهدًا ولا تشكو ملالًا . وقد قال الدكتور اراسموس دارون جد دارون الشهير ان السراطين اذا سلخت قشورها اقامت لها حارسًا سرطانًا لم يسلخ قشره لكي يذود عنها (١)

وتظهر فائدة التعاون على اشدها في النمل والنمل اما النمل فمعيشته كلها تعاون بتعاون فان انقسامه الى فرق وتربيته يقظ اسلافه وبناءه اهراءه واعتناءه بالمن كل ذلك مما يقتضي اتم التعاون والتعاضد . وهو فوق هذه كلها يشترك في طعامه حتى بعد اكله وهضمه كأن الفرد مرتبط بالنوع ارتباطًا حيويًا كارتباط دقائق الجسد الواحد بعضها ببعض فاذا التقت نملتان من نوعين مختلفين او من قريتين متخاصمتين تجنبت احداها الاخرى ولكن اذا التقت نملتان من نمل قرية واحدة او قرى متألفة دنت احداها من الاخرى وتلامستا بقرونها فاذا كانت احداها جائعة طلبت الطعام من رفيقتها فتقف هذه وقفة مخصوصة وتفتح فاها وتخرج لها من جوفها نقطة شفافة فتبتلع بها الاولى وتسد رمقها واذا كان في جوفها طعام وابته على رفيقتها ايثارًا لنفسها على غيرها عوملت معاملة العدو الالد . واذا اطعمت نملة نملة اخرى من غير قبيلتها عاملها نمل هذه القبيلة معاملة الصديق

ومهما اظهر النمل من الشدة والشراسة في حروبه فان الفريق المحارب ينتدي بعضه بعضًا بنفسه ويستبسل في الدفاع عن وطنه واهله . وبيوت النمل واهراؤه وطرقه المرصوصة والاسراب التي يبنيها فوق الارض وزرعه الحبوب (٢) واستغلالها ومنع الغلة من التفريخ وتربية صغاره كل ذلك نتيجة تعاونه وتعاضده في جميع اعماله . وهذا التعاون لم

(١) وقال الدميري ان السرطان يسلخ جلده في السنة ست مرات ويتخذ لجحره بابين احدهما شارع في الماء والآخر الى اليبس فاذا سلخ جلده سد عليه ما بلي الماء خوفًا على نفسه من سباع السمك وترك ما بلي اليبس مفتوحًا لتصل اليه الريح فيجف رطوبته و يشتد

(٢) قد اثبت كثيرون من الباحثين عن طبائع النمل انه يزرع الحبوب و يستغلها

بحرمة من الارتقاء الشخصي بل قوّاهُ فيهِ حتى صار يُضرَب المثل بحكمتهِ . فارتقاء النمل نتيجة الوئام لا نتيجة الحرب والصدام ناهيك عن انهُ معرَّض لاعدائهِ من لدن وجودهِ بيظًا الى ان يبلغ اشدَّهُ على ما بهِ من الضعف ولكنَّ تعاونهُ يحميهِ من الاعداء ويمكنهُ من الفتك بها فتخافهُ الحشرات الكبيرة وتهرب من وجههِ ذكر العالم فورد انهُ جمع كيسًا كبيرًا من النمل وافرغهُ في مرج فهربت منهُ الصراصير والجنادب والعناكب والخنافس واصرَّت الزنابير على الدفاع فحاربها وغلبها على بيوتها واغتصبها منها قوةً واقتدارًا بعد ان هلك من صفوفهِ جمٌ غفير في سبيل مصلحتهِ العامة. ولقد قال الفيلسوف دارون "ان دماغ النملة من اعجب ما في الدنيا وقد يكون اعجب من دماغ الانسان". وكأنَّ سبب ذلك استعاضة النمل عن الانانيَّة بالغيريَّة

وما يصدق على النمل يصدق على النحل فان الطير تأكلهُ والحيوانات على اختلافها ترغب في عسلهِ ولكنهُ اهتدى الى التعاون وتقسيم الاعمال فبلغ ما بلغ من الحكمة والمهارة في بناء بيوتهِ وجمع عسلهِ. فاذا ولد خشرم جديد واراد المهاجرة ارسل روَّادهُ امامهُ تهيئ لهُ منزلاً بنزلهُ فتفتش حتَّى تجد سلَّة او نحوها وتنظفها وتحفظها الى ان يأتي الخشرم كلهُ اليها. فهو احكم من اكثر الناس الَّذين يهاجرون الى بلاد لا يعرفون شيئًا من امرها ثم يشتغلون فيها لعدم التعاون . واذا عرض لهُ عارض درأهُ بالتي هي احسن كما حدث في معرض باريس اخيرًا فانهُ عُرِض فيهِ قفير نحل ووضع في احد جوانبهِ لوح من الزجاج لينفرج عليهِ الناس والنحل يحب التستُّر في اعمالهِ. وكان وراء اللوح غلق من الخشب بفتحهُ صاحبهُ حينما يريد ان يطلع الناس على النحل فتعاون النحل والصق هذا الغلق بالزجاج حتَّى لا يُفتَح

ويقيم النحل حرَّاسًا على باب قفيرهِ فاذا اتتهُ نحلة غريبة بقصد السرقة والنهب قتلتها الحرَّاس بلا شفقة واما اذا اتتهُ نحلة غريبة خطأً خلَّت عنها ولا سيما اذا كانت صغيرة لان صغار النحل تفصل عن قفرانها بسهولة

ويميل النحل الى البطالة بالطبع كغيرهِ من انواع الحيوان اذا وجد رزقهُ ميسورًا ويميل الى النهب والامتناع بما لم يتعب بهِ ويظهر فيهِ هذا الميل على اشدهِ اذا كان الرزق كثيرًا ميسورًا لديهِ كما يقرب معامل السكَّر او اذا كان قليلاً كما في سني المحل وفي الحالين يكثر الكسل والبطالة بل قد يكثر السكر ولا سيما بقرب معامل السكَّر ومن ثم ترى انهُ يعرض لعمران النحل نفس الشرور الَّتي تعرض لعمران الانسان اذا قلت خيراتهُ كثيرًا واذا زادت

كثيرًا ولكنهُ يتغلب على هذين الخلقين بالجد والتعاون

واذا التفتنا الى بقيّة انواع الحيوان لم نقدم امثلة كثيرة على التعاون والتناصر اولها تعاون الابوين على تربية الصغار فان ذلك يكاد يكون شاملاً طوائف الحيوان حتّى الضواري والكواسر ولولاهُ ما حفظت انواعها ناهيك عن ان كثيرًا منها يتأجّل آجالاً بالطبع ويعيش معاونًا على معيشتهِ ككثير من انواع الطير. وما يرى منفردًا بقرب مساكن الناس من الضواري كالضباع والذئاب وبنات اوى لا يكون كذلك في البراري البعيدة عن البشر. فانفرادهُ انما هو نتيجة افتراسهِ من الانسان الذي يبدد آجالهُ ويأكل الرزق من امامهِ. وعصابات الطير مشهورة في قطعها من بلاد اخرى واقامتها الروّاد والحرّاس لتهديها في المفاوز وتنبهها الى الخطر. والصيادون يعلمون ذلك ويقتلون الدليل او الحارس اولاً فيهون عليهم قتل البقيّة اذ تضعضع احوالها لفقد زعيمها. حتّى اسماك البحر لا تخلو من هذا التناصر والتعاون فقد اخبرنا بعضهم انهُ اذا مسك الصيادون كلبًا من كلاب البحر يرمونهُ في دياس تجتمع عليهم كلاب البحر وتكثر الضجيج والصراخ حتى يطرحوا لها الكلب الممسوك فتعود بهِ غانمة

ومن امثلة تعاون الطير ان الحوصل وهو الطائر الذي لهُ تحت منقارهِ جراب كبير يجتمع عصابات وكل عصابة في شكل نصف دائرة ثم تتقدّم نحو البر وتضيق حلقتها رويدًا رويدًا الى ان تصيد كل ما فيها من السمك كما يفعل الصيادون وقد تقف عصابة امام عصابة اخرى وكلٌّ منها في شكل نصف دائرة وتتقدمان رويدًا رويدًا وكلٌّ منها تضيق حلقتها في تقدمها الى ان تجتمعا في دائرة ضيقة وتصيدا كل ما فيها

والكراكي التي وصف الصفي الحلي قدومها من البطائح ورحيلها الى الجبال في طبعها التناصر على ما قالهُ الدميري في حياة الحيوان الكبرى فلا تطير الجماعة منها متفرقة بل صفًّا واحدًا يتقدمها واحد منها كالرئيس لها وفي تبعهِ يكون ذلك حينًا ثم يخلفهُ آخر منها متقدّمًا حتى يصير الذي كان متقدمًا مؤخرًا. وفي الكركي خلق ان ابويهِ اذا كبرا عالهما والى ذلك اشار ابو الفتح كشاجم حيث قال مخاطبًا ولدهُ

إتّخِذْ فيَّ خلّةً في الكراكي أتّخِذْ فيك خلّة الوطواطِ
أنا ان لم تبرّني في عناهُ فبِرّي ترجو جواز الصراطِ

"فان الوطواط يبرُّ والدهُ فلا يتركهُ بضيعةٍ بل يحملهُ معهُ حيثما توجه"

وهذا التناصر والتعاون يقدّر صغار الطير على مغالبة كبارهِ فصغار البواشق تجتمع

على الكبير من النسور وتزاحمه على صيده وصغار العصافير تجتمع على الافعى الكبيرة وتطردها وافوى الطيور تعاونًا واكثرها الفةً واشدها حذرًا البيغاء. قال برهم العالم الطبيعي "ان عصابة تختار مكانًا تسكنه وتغدو منه كل صباح في طلب رزقها ولا يفارق بعضها بعضًا في السراء ولا في الضراء فاذا دخلت حقلاً او بستانًا او وقعت على شجرة مثمرة اقامت الحرّاس تحرسها واصغت الى تحذيرها حتى اذا دنا منها عدو نهضت كلها وهربت الى مساكنها" وقد تقصدها انواع اخرى من الطيور وتقيم عندها مدةً على الرحب والسعة. وقال البرنس كروبتكن انها اذا غدت في استراليا الى سرقة حقل من حقول الحنطة ارسلت اولاً طليعةً تقيم على اعلى شجرة بقرب الحقل لتتجسس لها الاحوال وترى ابواب المخاطر وارسلت فرقةً اخرى تقيم في شجرة متوسطة بين الحقل والحرجة التي تسكنها حتّى تنقل اليها اخبار الجواسيس فاذا انبأت الجواسيس بان لا خطر من تقدم العصابة كلها طار فريق منها وحلق في الجوّ ليتأكّد الخبر حتى اذا ثبت له ان لا خطر من قيام العصابة كلها قامت الى حقل الحنطة ونهبته وقلما يستطيع الانسان ان يفاجئها واذا فاجأها وقتل واحدًا منها طارت تعزّ الذ تندبه ولو قُتل بعضها. وقد قال اوديبون الشهير في معرفة طبائع الطير انه اذا ائتلف ببغاءان ومات احدهما مات الآخر ايضًا حزنًا عليه ولو كانا من نوعين مختلفين. والارجح ان تناصر الببغاء ابعد عن الادعاء حتى قال برهم ان لا عدوّ للببغاء غير الانسان وان كبارهُ تعمّر عمرًا طويلاً ثم تموت من الهرم لا من وقوعها فريسة لغيرها من الكواسر ولعلّ تناصرها هذا هو الذي قوّى مداركها حتّى اشبهت الانسان في كثير من اطوارها. وجملة القول ان التعاون شريعة عامة كالتنازع

حجارة المانية

في برلين الآن فتاة المانيّة تربّت في بلاد البرتوغال على مصارعة الثيران البريّة. وبالامس شهد الناس مصارعتها لهذه الثيران فصرعت اثنين منها في مشهد كبير غاصّ بالمتفرجين

سكة الحديد في رؤوس الاشجار

انشأ بعضهم سكة حديد في كليفورنيا بلاد العجائب فمرّت على وادٍ كثير الاشجار فلم ينزل بها الى قاع الوادي بل قطع الاشجار التي فيه على موازاة واحدة ومدّ السكة على رؤوسها